الاستقراء عند نحاة العربية

للدكتور محمد خير الحلواني

عميد كلية الآداب – جامعة تشرين

وضح البحث في هذا الموضوع النقاط التالية :

١ – الاستقراء النحوي : متى بدأ ، وكيف بدأ ، ومتى استقر .

٢ – اللغة المستقراة : تحدث عن البيئة التي خصها النحاة باستقرائهم ، والمادة اللغوية وجمعها .

٣ – منهج الاستقراء : وتحدث عن منهج النحاة ومعالمه في الاستقراء ، وضرب أمثلة كثيرة عنه . ووزعه في أربعة معالم : التقسيم المكاني ، والتقسيم الزماني ، والمأخوذ عنه ، والمأخوذ به . وتحدث عن كل معلم منه ، وكشف عنه كشفاً وافياً .

٤ – تقويم المنهج : ثم ذكر الباحث ما اكتنف منهج النحويين من التقصير والضعف في الاستقراء .

٥ – وخلال البحث نجد بعض الأفكار الجديدة التي ناقش فيها الباحث القدماء ، كالذي ينسب الى نحاة الكوفة من تهاون في عملية الاستقراء ، والفرق بين لغة النثر والشعر في الاحتجاج ، والخ ...

الاستقراء عند نحاة العربية

الدكتور
محمد خير الحلواني
كلية الآداب

لا يشك أحد في ان اللغة المحكية – مهما كانت – ذات قوانين وانظمة يتقيد بها المتكلم ، ويراعيها بدقة بالغة ، دونما جهد فكري ، لأنها لا تزيد عنده على عادات صوتية ، اكتسبها من المحيط ، فهو يصدر عنها من غير ان تكلفه عناء فكرياً البتة .

وفي هذه المسلمة تكمن وظيفة اللغوي ، وبها تتحدد .

انها الكشف عن الأنظمة الدقيقة ، والقوانين المرعية ، في بناء اللغة التركيبي والصوتي ، وقد تقوده الظاهرة أحياناً الى التفسير والتعليل .

وحين نعود الى تراث العرب النحوي نجد الخطوات التي سارت به الى الكمال لا تخرج على طبيعة التطور والتدرج ، فقد نشأت الدراسة النحوية من تأملات ساذجة أيام ابي الأسود الدؤلي ثم ارتقت على يدي عبدالله بن ابي اسحاق الحضرمي ، وتميزت – أو كادت – من العلوم اللغوية الاخرى ، ولما جاء الخليل اقام للنحو العربي اسسه التي ثبتت ، واصوله التي مشى عليها جيل بعد جيل ، حتى أيامنا هذه .

وقبل ان نوغل في البحث نؤثر ان نوضح معنى الاستقراء في الحقل النحوي .

انه مجموعة من العمليات الذهنية ، تبدأ بالملاحظة ، ثم تنتقل الى تتبع المادة اللغوية وجمعها ، ثم تصنيفها وتقسيمها الى لغة مدونة ، واخرى غير مدونة ، ثم يتعدى ذلك الى تقسيم النصوص بحسب معيارين مهمين ، أولهما المكان ، وثانيهما الزمان ، فما يؤخذ من أواسط الرقعة اللغوية يختلف قيمة عما يؤخذ من أطرافها ، وما نقل من النصوص القديمة يختلف عما يقال في المرحلة المعاصرة للنحوي .

هذا هو الاستقراء اللغوي ، فما الذي فعله نحاة العربية ؟

لقد كان خيراً للنحاة ان بدأوا استقراءهم واستنباطهم لقواعد العربية في عصر مبكر بعد الاسلام ، لم يتعد القرن الأول للهجرة ، لأن اللغة آنذاك كانت في منأى عن عوامل التغيير والتطور ، ففي بوادي نجد والحجاز وتهامة ، قبائل عربية تحكي لغة نقية غير مشوبة ، لا تختلف عن العربية التي كانت لغة أجدادهم الذين عاشوا قبل الميلاد(١) ، وهذا يؤمن للنحوي وسطاً لغوياً حياً ، يرجع اليه متى شاء ، وكيف شاء .

وفي هذا الوسط ظاهرة غنية جداً ، فالاعراب الفصحاء هم اصحاب الشعر ، وهم رواته ومنشدوه ، وذلك يكفل للنحوي وفرة من نصوص اللغة المستقراة ، ويضع بين يديه فيضاً غزيراً من المادة اللغوية التي ترجع الى زمن قبل زمانه .

وليس هذا فحسب ، بل كان بين ايدي النحاة مجموعة مدونة من نصوص العربية لا يرقى الشك اليها والى صحتها وفصاحتها ، هي القرآن الكريم ، فهو ذخر لغوي جمع — أو كاد — معظم ظواهر النحو العربي ، وما من نحوي الا والقرآن عنده في ذروة البيان والاتقان ، ومن اجل ذلك كانت العودة اليه في عملية الاستقراء مبكرة جداً ، لعل أولى خطواتها ما صنعه أبو الأسود في ضبطه .

والى جانب هذين المصدرين — أعني البادية الفصيحة ، والقرآن الكريم — كان هناك مدونات كثيرة ، بعضها شعر جاهلي قديم ، دونه الملوك وبعض الخلفاء ، ودونته

---

(١) انظر : رأى المستشرق نولدكه في كتاب : فصول من فقه العربية . للدكتور عبدالتواب ص ٣٤٠ .

القبائل العربية نفسها(١) وبعضها أمثال(٢) تجسد حوادث تاريخية ، وتصور اللغة المحكية آنذاك ، وبعضها الآخر احاديث نبوية دونها بعض الصحابة ، ولا يزال بعضها محفوظاً في كتب الصحاح ، كصحف عبدالله بن عمرو بن العاص ، وصحف ابي هريرة(٣) .

تلك هي المادة اللغوية التي استقراها النحاة ، وهي — كما ترى — وافرة ، غنية ، متنوعة ، منها المحكيّ ومنها المدون ، ومنها القديم ومنها الجديد ، فما المنهاج الذي سار عليه نحاتنا في استقرائهم لهذه المادة ؟

من يرجع الى التراث النحوي المبكر يجد عملية الاستقراء ناضجة جداً ، فالنحاة منذ القرنين الأول والثاني كانوا على احاطة قريبة من الكمال بلغة العرب ، ولهجاتها ، ومواقعها الجغرافية ، ومعرفة الفصيح منها وغير الفصيح ، ويكفي ان نضع بين يديك مثالاً من كتابين يرجعان في الزمن الى هذه المرحلة ، أولهما كتاب سيبويه ، وثانيهما كتاب الفراء «معاني القرآن» ، فهما ذخيرة حية لآراء النحاة وشواهدهم المستقراة منذ ايام الحضرمي حتى نهاية القرن الثاني للهجرة .

ففي كتاب سيبويه استقراء لما يقرب من خمس مئة آية من القرآن الكريم واحتجاج بها ، سواء أكانت من قراءة الجمهور ، أم كانت مما انفرد به مقرىء في أحد الأمصار ، وفيه ايضاً احتجاج بخمسين وألف بيت من الشعر الجاهلي والاسلامي القديم ، وفيه ما يقرب من ثمانية احاديث نبوية ، وفيه — وهذا اهم مما تقدم — ما لا يحصى كثرة من كلام العرب المنقول ، سواء أسمعه سيبويه مباشرة من أفواه الفصحاء ، أم نقله عن شيوخه الثقات الذين سمعوه في بوادي الفصاحة ، أو في سوق المربد وغيره من الأماكن التي كان يختلف اليها الاعراب الموثوق بلغتهم .

اما كتاب الفراء فهو يقوم على استقراء لغة القرآن الكريم ، وتوضيح ما فيه من ظواهر النحو ، وربطها بكلام العرب الفصيح ، ومن أجل هذا احتفل مؤلفه بالشواهد الشعرية فأربى على شواهد سيبويه ، كما زاد عليه بعدد الاحاديث النبوية ، إذ تعدت عنده الثلاثة عشر حديثاً ، اضف الى ذلك انه عاد الى كلام العرب في مواضع تساوي ما عاد

---

(١) انظر في هذا : طبقات فحول الشعراء ٢٣ ، والفهرست (المكتبة التجارية) ص ١٣٤ و ص ٩ ، والفائق في غريب الحديث للزمخشري ٦٧٧/١ .

(٢) انظر : الأمثال العربية القديمة . لزهايم . ترجمة الدكتور عبدالتواب ص ٧١ .

(٣) انظر : لمحات في أصول الحديث . للدكتور أديب الصالح ص ٦٣ .

اليه سيبويه ، بل كان يعتمد اعراباً معروفين بالفصاحة ، هم أبو ثروان العكلي ، وابو الجراح العقيلي ، وأبو زياد ، الى جانب الفقعسي والحارثي والقناني ، وأحياناً يسند ما ينقله اسناداً عاماً ، مكتفياً بذكر القبيلة ، كقوله : انشدني بعض ربيعة ، أو بعض بني عامر ، أو بعض بني أسد ، أو عقيل ، أو أنف الناقة (١) .

والى جانب هذه الكثرة العجيبة من النصوص اللغوية التي رجعوا اليها نجدهم يقيدون انفسهم بمبدأ صارم ، هو توثيق لغة النص المستقرى ، فهم ابداً يفرقون بين اللغة التي يحتج بها ، واللغة المرذولة التي لا تصلح للاستقراء والاستنباط ، وسيمر بك من هذا ما يكفي دليلاً قاطعاً على دقة مناهجهم .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان ما يُنْسَبُ في بعض الكتب من تهاون نحاة الكوفة بأمر توثيق اللغة ، لا يعدو ان يكون تهمة سطحية املتها العصبية المذهبية في القرن الثالث للهجرة ، ودونها احد كتاب الطبقات هو أبو الطيب اللغوي ، في كتابه «مراتب النحويين» ثم أخذها عنه المتأخرون كالقفطي في كتابه «انباه الرواة» والحموي في معجم لأدباء ، والأنباري في «نزهة الألباء» .

والدليل على سطحية هذه التهمة وزيفها اننا وجدنا استقراء الفراء قائماً على لغة القرآن ، والشعر الفصيح ، والاعراب الذين نعتهم التاريخ بالثقة اللغوية ، أما استاذه الكسائي فقد وضعه أبو علي الفارسي وابو الفتح بن جني في صف سيبويه من حيث صحة الرواية والأمانة(٢) ، وصنيعهما هذا يدفع أباطيل المتعصبين في تاريخ العلوم .

وباستطاعتنا ان نقسم الحديث عن منهاج النحويين في الاستقراء الى فقرات اربع هي :

١ — التقسيم المكاني .

٢ — التقسيم الزماني .

٣ — المأخوذ عنه .

٤ — المأخوذ به .

---

(١) انظر من كتابه : الجزء الأول (٤٠ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٨ ، ١٤٠ ، ١٧٠ ، ٣٦٩) وانظر في توثيق فصاحة اعرابه كتاب ابن النديم : الفهرست ٧١–٧٦ .

(٢) انظر : الخصائص ٨٩/٢ ، و ٣١١/٣ ، وانظر كتاب : ابو علي الفارسي للدكتور الشلبي ٤٢٥ .

وسنوجز الحديث في كل فقرة منها ، لنجلو ما نستطيع جلاءه من منهج النحاة .

آ — **النحاة والتقسيم المكاني :**

نظر النحاة الى الرقعة اللغوية نظرة علمية موضوعية ، تدل على نضج الدرس النحوي في زمن مبكر ، فقد فرقوا بين لغة البادية في وسط جزيرة العرب ، ولغة الحواضر والاطراف ، وقد قام هذا التقسيم على مبدأ منهجي سليم ، فهم يدركون ان لغة القبائل البدوية وإن كانت مختلفة اللهجات بعيدة عن التأثر باللغات الغريبة ، ومن أجل ذلك تظل محافظة على اصالتها صوتاً وتركيباً ، أما لغة الحواضر والاطراف فقد شابها من اللغات الاخرى ما جعلها غير صالحة للاستقراء ، ففي مكة والمدينة والحيرة ، أحباش وفرس ورومان وآراميون وبعض الهنود ، عاشوا فيها منذ الجاهلية ، واشتدت صلاتهم بها في الاسلام ، وقد زرعوا في تربة العربية المدنية كثيراً من المفردات ، وكانوا سبباً في اضعاف السليقة اللغوية في السكان .

ولم يكن هذا مسلكاً عفوياً في عملية الاستقراء النحوي ، بل كان يجري في عالم واع جداً في مناهج النحاة ، تنم عليه اعمالهم ، وتكشف عنه اقوالهم الصريحة ، فالمعروف من اخبار ابي عمرو بن العلاء انه يأخذ عن اعراب ادركوا الجاهلية ، وهم — كما يقول المعري — «حَرَشَةُ الضِباب في البلاد الكَلَدات ، وجُناةُ الكمأةِ في مغاني البداة»(١) ، وتمتلىء كتب النحاة القديمة بلغة الاعراب النجديين والحجازيين واشعارهم .

أما اقوالهم الصريحة فنؤثر ان نقتصر منها على ثلاثة فقط ، نعرضها بحسب تسلسلها التاريخي .

١ — يرى الفراء — وهو من نحويي القرن الثاني — ان الاعراب فصحاء بالطبع والسليقة ، اما سكان المدن من القراء العلماء فقد أخذوا قراءتهم بالصنعة ، وشتان ما هذا وذاك ، يقول : «وانما صرت اختار : هَلْ تستطيع . وبل نظنكم . فأظهر ، لأن القراءة من المولدين مصنوعة ، لم يأخذوها بطباع الاعراب ، انما اخذوها بالصنعة»(٢)

٢ — وفي القرن الثاني نفسه نجد ابا الحسن الأخفش يوازن بين لغة اهل المدينة

---

(١) رسالة الغفران ١٦٩/ الطبعة الثانية .

(٢) انظر : معاني القرآن ٣٥٣/٢ .

ولغة اهل البادية ، يقول : «وليس أحد من العرب الفصحاء الا يقول : انه يحكي كلام أبيه وسلفه يتوارثونه آخر عن أول ، وتابع عن متبع ، وليس كذلك أهل الحضر ، لأنهم يتظاهرون بينهم أنهم قد تركوا وخالفوا كلام من ينتسب الى اللغة العربية الفصيحة »(١) .

٣ – وكانت الفوارق بين لغة المدينة ولغة البادية تجعل النحوي يشك في لغة من طال مُكْثُهُ في المدينة من ابناء البادية ، فقد صرح الجاحظ ان النحاة متى وجدوا اعرابياً يفهم كلام الأعاجم ورطانتهم «بهرجوه ولم يسمعوا كلامه ، لأن ذلك يدل على طول اقامته في الدار التي تفسد اللغة ، وتنقص البيان »(٢) .

ومثل هذا في تراثهم كثير(٣) ، وهذا هو السبب الذي جعل نحوياً كالكسائي يترك الاحتجاج بلغة بني تميم وبني أسد المقيمين في الكوفة ويسعى الى ابناء عمهم في نجد وتهامة وغيرهما من البوادي الفصيحة(٤) .

ويقوم هذا المنهاج على معرفة قانون لغوي بالغ الأهمية ، هو ان تطور اللغة بعيدة عن المؤثرات الخارجية «يعد أمراً مثالياً لا يكاد يتحقق في أية لغة ، بل على العكس من ذلك فان الأثر الذي يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها ، كثيراً ما يلعب دوراً هاماً في التطور اللغوي »(٥) ومن أجل ذلك ادرك النحاة ان البادية العربية منعزلة عن الأعاجم ، وان القبائل الفصيحة لا تختلط بغير العرب ، وهذا كله يؤدي الى استمرار العادات اللغوية ، وبقاء البناء اللغوي سليماً عصياً على التطور والتبدل، أما لغة المدن واطراف الجزيرة فلغاتها على احتكاك باللغات الأجنبية ، ولا يمكن ان تبقى سليمة خالية من التأثر .

ومجمل ما يقال في نهاية هذه الفقرة ان النحاة اعتمدوا لغة تميم واسد وطيء وقيس وهذيل ، وهي قبائل كبيرة ، يتفرع منها افخاذ وبطون ، تختلف فيما بينها فصاحة ،

---

(١) عن : كتاب الخصائص ٢/٢٩ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١/١٦٢–١٦٣ .

(٣) للتوسع في هذا يمكن الرجوع الى كتاب الخصائص ٢/٥ ، وكتاب الحروف لأبي نصر الفارابي ١٤٦ ووفيات الأعيان (نشر محيي الدين عبدالحميد) ٣/١٣٤ .

(٤) انظر : طبقات النحويين واللغويين ٢١٤ .

(٥) اللغة . لفندريس ٣٤٨ .

ويختلف النحويون أيضاً في تحديد القبيلة التي تفوق غيرها ، الا انهم اعتمدوا لغة تميم واسد اكثر مما اعتمدوا غيرها .

ولا بد لنا من ان نشير بايجاز الى نتائج التقسيم المكاني في تاريخ النحو ، فالنحاة استقروا لغة البادية ، أو قل لغة الشعر المثالية ، وهي نفسها لغة القرآن الكريم ، ولغة الاعراب الذين ذكرنا قبائلهم ، واعرضوا عن لغة الحواضر ، ولكنهم احتجوا بلغة شعراء المدن في القرنين الأول والثاني ، لأنهم اتقنوا لغة البداة واجادوا فيها نظم الشعر ، ثم اعرضوا في النصف الثاني من القرن الاخير عن استقراء لغة من عاش في المدينة من الشعراء ، وظلوا على صلة بلغة الشعراء البداة ، ففي عصر واحد عاش بشار بن برد ومروان بن ابي حفصة وابو نواس ، وكلهم من ابناء المدن،وابن ميّادة وابو نخيلة وابن هَرْمة وابو حية النميري ، وكلهم بدوي عريق ، فاعتمد النحاة لغة الفريق الثاني ، واطرحوا لغة الفريق الأول .

ولا يهمنا طبعاً ما جاء في كتب المتأخرين من شواهد لهؤلاء ، لأن عملية الاستقراء انما قام بها قدامى النحاة لا متأخروهم ، كما لا يهم ما ذكروه من ان سيبويه احتج بشطر بيت لبشار في باب الادغام ، لان هذا لا يدل على أمر ذي بال في منهاج النحاة الراسخ .

ب — النحاة والتقسيم الزماني :

اما الرقعة الزمنية — ان صح التعبير — فانها تبدأ من القرن الرابع قبل الهجرة النبوية وتنتهي — أو تكاد — في القرن الرابع بعدها ، وعلى هدا تمتد ثمانية قرون ، الا ان بدايتها ونهايتها أقل مادة من وسطها ، اذ يشتد اعتماد النحاة للغة العصر الاسلامي والجاهلي القريب من البعثة النبوية .

لقد احتج النحويون باللغة التي كانت على عهد جَذِيمةَ الأبرش ، والزباء ، واعصر ابن سعد(١) ، وهؤلاء من القرن الرابع قبل الهجرة ، ثم تجاوزوا هذه المرحلة الى عصر امرىء القيس وعبيد بن الأبرص وطرفة بن العبد ، ثم الى عصر الأعشى والنابغة وزهير والحطيئة ، فالى عصر الفرزدق وجرير وذي الرمة والعجاج ورؤبة ، وبعدئذ تأخذ المادة المحتج بها بالضعف ، حتى لتكاد تكون ردفاً لما جمع من شواهد المرحلة السابقة ، فالشعراء

---

(١) انظر : سيبويه ١٥٣/٢ ، والخصائص ١٨٢/٣ ، وأوضح المسالك ٣٣٧/١ والموشح ٣١٥ .

المخضرمون بين الدولتين : الأموية والعباسية ، أمثال ابن هرمة وابن ميادة وابي نخيلة والحسين بن مطير لم يقدموا شيئاً يذكر بجانب ما قدمه الفرزدق وجرير والأعشى ورؤبة والعجاج وذو الرمة .

ويختلف النحاة واللغويون في تحديد مرحلة «الحداثة» التي لا يحتج بلغة شعرائها ومتكلميها ، بل ان النحوي الواحد أو اللغوي ليضطرب رأيه في تحديدها ، فأبو عمرو بن العلاء يجد في شعر عمر بن ابي ربيعة حجة في العربية(١) ، على حين كان يعد جريراً والفرزدق والأخطل محدثين(٢) ، وكان الأصمعي يجيز الاحتجاج بابن هرمة وابن ميادة (٣) ، ولا يجيزه بالكميت بن زيد والطرماح(٤) ، وهم جميعاً من عصر واحد .

واذا كان التقسيم الزماني مضطرباً في أذهان النحاة ، فان ذلك يرجع الى طبيعة هذا الأصل نفسه ، فالزمان يخلو من الحدود الفاصلة ، ومن العسير تحديد نقطة زمانية يقف النحاة عندها فلا يحتجون بما وراءها ،لأن هذه النقطة لايمكن ان تكون حداً فاصلاً صارماً لايتداخل ما قبله بما بعده،ولنتخذ ابن هرمة مثالاً لنا في توضيح هذا ، فقد ولد سنة تسعين للهجرة ، ومات سنة سبعين ومئة ، في خلافة الرشيد ، فاذا حدد النحاة سنة خمسين ومئة للهجرة مثلاً نهاية عصر الاحتجاج ، فمعنى هذا انهم يجيزون الاحتجاج بشعر ابن هرمة الذي قاله قبل هذا العام ويرفضون الاحتجاج بما قاله بعده ، ومعنى ذلك انه كان ذا لغة فصيحة قبل هذا العام ثم لم يعد فصيحاً بعده ، ومنطلق كهذا لا يوافق المنطق العلمي ، ومن اجل ذلك اعتمد النحاة تقسيماً مكانياً واضحاً ، اتفقوا عليه ، ولكنهم لم يوضحوا التقسيم الزماني لصعوبة توضيحه .

جـ ـ المأخوذ عنــــه :

وكان النحويون يحرصون على فصاحة الاعرابي الذي يستقرون لغته ، وما نظرتهم الى التقسيمين السابقين الا تحقيق واضح لمبدأ الفصاحة الذي يتوخونه .

---

(١) انظر : الموشح ٣١٥ .
(٢) انظر : البيان والتبيين ٣٢١/١ ، والأغاني ٢٨٥/٨ .
(٣) انظر : الأغاني ٣٧٣/٤ .
(٤) انظر : الموشح ٣٠٢ .

ويتضح لك هذا الحرص في الحاح النحاة على وصف من يأخذون عنه بالفصاحة والثقة ، ففي كتاب سيبويه من هذا كثير ، كقوله : «وسمعنا الثقة من العرب ...» وقوله : «سمعناه ممن يرويه عن العرب الموثوق بهم»(١) ، وفي آثار الكسائي والفراء تحديد للقبائل أو تسمية للمنقول عنه ، وهذا عندهما يقوم مقام ذكر الفصاحة أو الثقة .

وفي القرن الرابع نجد ابن جني يصوغ هذه المتناثرات على شكل قوانين ، ويربطها بالحوادث المروية ، فما دام القوم اخذوا يلحنون منذ أيام الرسول وصحابته «فينبغي ان يستوحش من الأخذ عن كل أحد ، الا ان تقوى لغته ، وتشيع فصاحته»(٢) ، وعلى هذا تنهار الحدود الزمانية أمام المقومات الفردية .

ثم يحذر من الشك في فصاحة الاعرابي اذا لم يكن هناك دليل قاطع ، لأن ذلك يوحش من كل لغة صحيحة ، ويتوجه منه ان يتوقف الأخذ بها مخافة ان يكون فيها زيغ حادث(٣) .

وكان النحويون يشيرون في بعض الأحيان الى ان الظاهرة اللغوية التي يتحدثون عنها لم تُستَقَرَ من لغة فصيحة موثوق بها ، لأنها لم تؤخذ ممن يوثق بعربيته(٤) .

ثم ان الفصاحة قد تفسد من جراء الاختلاط ، ولذلك لم يكن بد من التأكد من استمرارها بالتجربة والاختبار .

وقد اقتدى النحاة بشيخهم الكبير ابي عمرو بن العلاء ، فقد كان كثير الامتحان للاعراب ذلك انه قال : «ارتبت بفصاحة اعرابي ، فأردت امتحانه ، فقلت بيتاً وألقيته عليه ، وهو :

كم رأينا من مُسْحَبٍ مسلحِبٍ   صار لحمَ النسورِ والعقبان

فأفكر فيه ، ثم قال : رُدّ عليّ ذكر المسحوب ، حتى قالها سرات ، فعلمت ان فصاحته باقية»(٥) .

---

(١) انظر كتابه : ٣٣١/١ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ...
(٢) الخصائص ٨/٢ وما بعدها .
(٣) نفسه : ١٣/٢ .
(٤) انظر : سيبويه ٢٣١/١ والخصائص ٥/٢ وما بعدها ، والمحتسب ٢٣٤/١ .
(٥) عن : تاريخ آداب العرب للرافعي ٢٥٤/١ .

وسأل أبو حاتم السجستاني عمارة بن عقيل عن جمع : ريح ، فقال له : ارياح . فراجعه فاحتج له بقوله تعالى : وارسلنا الرياح لواقح . فقال ابو حاتم : «فعلمت بذلك انه ممن لا يجب ان يؤخذ عنه»(١) ، وقد مر بنا ما قال الجاحظ عن بهرجة النحاة للاعرابي الذي يفهم كلام الاعاجم ، لأن ذلك يعني فساد فصاحته ، لتأثره باللغات الاخرى .

ولكن الاستقراء لم يكن دوماً مباشراً ، فكثيراً ما كان بالواسطة ، كأن يأخذ النحوي عن راو سمع من الفصحاء شيئاً جديراً بالاستقراء ، ولا بد من ان يكون الراوي موثوقاً به لتكون عملية الاستقراء ذات اساس ركين ، ومن أجل ذلك نرى علماء اللغة والنحو يعتمدون شيوخهم ، وكلهم ثقة .

فسيبويه مثلاً ينقل عن الخليل بن احمد ، ويونس بن حبيب ، وعيسى بن عمر ، وابي زيد الانصاري ، وابي الخطاب الأخفش الأكبر ، ومن طريق هؤلاء يروي عن ابي عمرو ، والحضرمي ، وقد يخفي اسم الراوي ويستبدل به لفظاً موثقاً ، كأن يقول : «وحدثنا من نثق به» أو يقول : «وزعم من نثق به»(٢) .

وابو الحسن الاخفش ينقل عن يونس وابي عبيدة وابي زيد ، ومن طريقهم ينقل عن ابي عمرو ، وهو كسيبويه قد يهمل اسم الشيخ ليستعين بنعت الثقة ، كقوله: «اخبرني من أثق به»(٣) وعلى هذا الغرار يمضي النحويون كافة .

د ــ المأخوذ بـــــه :

وبعد ان يتم للنحوي النقل الصحيح ينظر في المادة اللغوية المنقولة ، ويتفحصها ، وأول ما يشترطه في الظاهرة التي يحملها النص ان تكون كثيرة الاستعمال ، شائعة في الفصحاء ، لأن القواعد تبنى على الكثير لا على القليل أو النادر .

فمنذ ايام ابي عمرو ، وعيسى بن عمر ، كان هذا المبدأ الاصولي واضحاً في عملية الاستقراء ، اذ كانا يبينان على الكثير ويسميان ما خالفه لغة(٤) ، وفي أيام سيبويه نرى هذا

---

(١) عن : الخصائص ٣/٢٩٥ .
(٢) انظر : كتابه ١/٤٤ ، ٢٨٣ .
(٣) انظر : معاني القرآن . مصورة عن مخطوطة طهران . اللوحة ١/١٥ .
(٤) انظر : طبقات النحويين واللغويين ٣٤ ، وانباه الرواة ٢/٣٧٥ .

المبدأ اكثر وضوحاً اذ ينعت بعض الظواهر بالكثرة ، وينعت بعضها بالقلة[1] ، وبعد سيبويه يتقيد النحاة بهذا الاصل وان لم يلحوا على ذكره في آثارهم . فالأخفش مثلاً يصف لغة من اللغات بأنها «قبيحة قليلة »[2] ، وكان الكسائي يعيب دخول لام الأمر على المضارع اذا كان بصيغة المخاطب ، «لأنه وجده قليلاً فجعله عيباً »[3] ، وهذا كثير جداً في كتب النحو .

والى جانب هذا نجدهم يفرقون بين لغة النثر ولغة الشعر ، لأن الشاعر — في بعض الأحيان — يتصرف بالتعبير ويخرج على القوانين اللغوية المطردة ، ولا بد من ملاحظة هذا في استقراء اللغة ، ليكون الاستنباط اكثر دقة .

من هنا كان الفراء ينظر الى لغة القرآن الكريم على أنها أجدر بالاستقراء من لغة الشعر ، يقول : «والكتاب اعرب واقوى في الحجة من الشعر »[4] ، ويقول : «وقال الله تبارك وتعالى وهو أصدق من قول الشاعر ...»[5] ، واحتجاجه هنا لجواز حذف جواب الشرط حين يكون معلوماً .

وعلى هذا النحاة جميعاً ، نذكر منهم الرماني ، وأبا البركات الانباري ، والشاطبي[6] .

وقادتهم هذه النظرات الواعية الى مناقشة الروايات المتعددة التي تتباين ظواهرها ، بين موافقة للقياس ، ومخالفة له ، وبين قليلة في الاستعمال وكثيرة فيه ، كما قادتهم الى دراسة الضرورة الشعرية ، وبحث الفروق بينها وبين اللحن ، وهي — لعمري — دراسة تستحق الاهتمام ، لما فيها من عمق واصالة ، ولكنها تحتاج الى بحث خاص مطول ، لا يمكن ان نستوفيها في هذه العجالة .

• • •

(١) انظر من كتابه : ٢٥٨/١ ، ٣٨٤ ، ٤٥٢ ، الخ ...
(٢) معاني القرآن : اللوحة ١٦٨/٢ .
(٣) عن الفراء . معاني القرآن ٤٦٩/١—٤٧٠ .
(٤) معاني القرآن ١٤/١ .
(٥) نفسه : ٧/٢ .
(٦) انظر : شرح الرماني لكتاب سيبويه ١٤٤/١/٣ عن : كتاب : الرماني النحوي للدكتور مازن المبارك ٢٧٥ ، والانصاف في مسائل الخلاف . المسألة ٧٠ ، والمواهب الفتحية ٣٩/١ .

ذاك هو عمل النحويين في الاستقراء ، وهو في جملته يدل على وعي تام لظواهر اللغة ، ولمنهج الاستنباط ، ولكننا لا نستطيع ان نزعم له الكمال ، وننفي عنه ما اعتورد من النقص ، فطبائع الأمور تدل على انه لم يخل من مواضع الضعف ، لأن الآثار اللغوية المدونة في تلك الحقبة لم تكن مستقرة ، فالشعر يموت منه ما يموت بمقتل بعض رواته في الغزوات الاسلامية ، والخطب الجاهلية لم تكن ذات ايقاع يسهل على الرواة حفظها وتخليدها.

وكان القدماء يعرفون ان ما بين ايديهم من مادة اللغة المستقراة غير كامل ، فهذا أبو عمرو يرسل كلمته المشهورة في اذن التاريخ : «ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »(١) ، ولسيبويه شيء من التصريح لا يختلف في مضمونه عما قاله أبو عمرو (٢) وكذلك الشأن عند ابن جني ، فهو يحس بالصعوبة البالغة التي تكتنف استقصاء المادة اللغوية «لكلفة هذا الأمر ، وبعد أطرافه ، وابعاد اكنافه ان يحاط بها ، أو يشتمل عليها تحجر »(٣) .

هذا كله أدى إلى تعجل بعض النحويين في صوغ قاعدة ما ، ثم ظهر من النصوص الفصيحة ما خالفها ، فعيسى بن عمر لم يكن يعرف ان خبر (ليس) يقع مرفوعاً إذا انتقض النفي بـ (الا) حتى وقفه عليه ابو عمرو بن العلاء(٤) ، وكان سيبويه وشيوخه قبله لا يعرفون (حاشا) الا حرفاً جاراً ، مثل (حتى) ، ولهذا منعوا ان تدخل عليها (ما) المصدرية التي تدخل على (عدا) و (خلا) ، قال سيبويه : «ألا ترى انك لو قلت : اتوني ما حاشا زيداً ، لم يكن كلاماً »(٥) ، ثم وقف المتأخرون بعده على بيت الأخطل :

رأيت الناس ما حاشا قريشــا   فانا نحــن افضلهم فعــالا

وعلى قول الرسول (ص) : «اسامة احب الناس الي ما حاشا فاطمة »(٦) ، ولو ان سيبويه على علم بذلك لأورده – على اضعف الاحتمالات – مورد الشذوذ والقلة .

---

(١) انظر : طبقات ابن سلام ٢٢–٢٣ .
(٢) انظر : كتابه ٢٦٨/١ .
(٣) الخصائص ١٨٦/٣ .
(٤) انظر الرواية في المزهر . للسيوطي ٢٧٧/٢ وما بعدها .
(٥) كتابه : ٣٧٧/١ .
(٦) انظر : شرح ابن عقيل للألفية ٢٣٩/٢ .

وفي بعض الأحيان تجد النحويين مقصرين في استقراء لغة القرآن نفسها على قربها منهم ، وسهولة ذلك عليهم ، من ذلك ان سيبويه كان يذهب الى ان اسم الزمان اذا كان للمستقبل لا يضاف الا جملة اسمية ، وهذا يدل على أنه لم يلاحظ قوله تعالى : «لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء» . (غافر ١٥–١٦) .

وليس عرض الشواهد على نقص الاستقراء مما يهم في هذا البحث ، لأن ما عرضناه يكفي للدلالة على ما لم نذكره ، ولكن الذي يمكن ان نخرج به بعد هذا المطاف هو ان الاستقراء النحوي عند العرب كان واعياً جداً ، ذا اصول واضحة ، لم يفتها اعتبار المكان والزمان ، وتأثيرهما في تطوير اللغة وتراكيبها ، وظواهرها النحوية والصرفية .

محمد خير الحلواني
كلية الآداب – اللاذقية